حـــومة

في سماء الادب

لراجي الراعي

درس الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع وتغنى السنين الطوال بين سيبويه والزمخشري وتأبط المعاجم وقرأ معلقات الجاهلية وبعض قصائد لبني أمية وخزن في حافظته مقامات الحريري واليازجي ثم أخذ القلم والقرطاس وراح يكتب كتابتهُ الزمخشرية مثلاً انهُ الأديب . . كتب بلغة صحيحة ولكنها لغة باردة ، لغة قطبية . . كتب بلغة قحطان ولكن ليس في ما كتبهُ حة واحدة من حمم البركان . . رفع الفاعل ونصب المفعول به ولكنهُ لم يرفع عيناً واحداً من اعياء الانسانية ولا نصب له هيكلاً واحداً في ساحة الآلهة . . جاءني بأثقل الكلمات على الآذان بكلمة : « مستنزرات » ليبرهن لي انهُ يملك ناصية الكلمات فكدت ألعن من أجل ذلك العربية « أم ابنات » . كتب سطوره فلم أثب الى رأس الأفق ولم أرتاعنة ولا مررت بعاصفة ولا فتحت جرحاً ولا سكبت دمعاً ولا استكشفت سراً ولا صحت صيحاتي ولا عانقت حلماً ولا لثمت نجماً . . كتب فلم تقل لي القيثارة الكونية : هذا ينقر على أوتاري فقم واطرب . . كتب سطوره الجاحظيه الجافة فلم يدنني خطوة واحدة من الخالق ولم يجلسني على ضفاف تلك الانهار ، أنهار الجنة ولا سقاني كأساً واحدة من لبانها . ويريد ان أقول انهُ الأديب والكاتب الفحل وان الادب دار دورته ثم ألقى عصاه في بيته وانهُ الارض تدور حول شمس البيان ومفخرة هذا الزمان

مسكين هذا الاديب الزائف المتطفل على مائدة الادب الحقيقي . . مسكين القلم في تلك اليد التي لا روح فيها وفي تلك الدواة الخالية من الدمع . . مسكين ذلك القرطاس الذي لا تطن فيهِ الاجراس ، ولا يضطرم فيهِ الاحساس ، ولا يضيء فيهِ الماس ، ولا تتجلى فيهِ الاقداس ، ولا تنبت فيهِ الاغراس ولا تزغرد فيهِ الاعراس ، ولا يضحك فيهِ أبو نواس بين الكاس والطاس ولا يوسوس فيهِ الشيطان الخناس ، ولا ترتوي منهُ الحواس ، ولا تجد فيهِ مكان

الذهب غير النحاس . . مسكين ذلك القرطاس ، قرطاس الكاتب النحات الذي حسب ان الادب قائم بالصرف والاستعارة والجناس ولم يدرك ان أدبه يضيق الانفاس ويطمن الادب طعنة دونها طعنة جساس . . .

الادب الحقيقي روح سيار وثاب وضاء . . الادب الحقيقي كهرباء . . .

الاديب الحقيقي سكير عتيق من سكارى الآلهة ينزل الى أعماق آنية الروح ثم يصعد منها وفي يديه مائة الف كاس من الخمرة المعتقة يضعها على مائدة الانسانية قائلاً لها : هأنذا هأنذا أتيتك بالخمر فاتلي . . . الاديب الحقيقي هو الذي يطربك ويهزك يثب بك بجماله ولا تدري أين موضع الجمال فيه فهو في ذلك كالمرأة الجميلة تملك ولا تدري من أين تصب لك الخمر . الاديب الحقيقي هو الذي يضحكك متى شاء ويبكيك متى شاء ويحييك متى شاء . . هو مضمد الجراحات أو مضمدها ومقيم الابنية او هادمها ، هو الام في أمة والاجيال في جيل ، هو بركة الدهر او لعنته وابتسامة الانسانية او دمعتها وسكينة الايام او ثورتها . . يأمر اللغة فتأتيه صاغرة ويستبيح حماها على الرغم مما اقيم حولها من الاسلاك الشائكة . . يفكر الزمخشري والجاحظ اذا ما وقفا بأساليبهما في طريق روحه ويخلق لفكرة التي يختارها الكلمة الموسيقية التي تناسبها وان لم تأته بها المعاجم او أتت بغيرها مما لا ترتاح اليها اذنه . . الاديب الحقيقي هو الذي يستحيل القلم في يديه الى قيثارة فيقضي الحياة منشداً ويموت في الانشودة ومن أجلها

مثل هذا الاديب ومثل هذا الادب لا تخرجهما الا معاجم الله قائلة وقواعدها والمطالعة وساعاتها لا تفيد اذا لم تكن الطبيعة كريمة والارض خصبة — ان المعاجم جميعاً لا تستطيع ان تأتيك بنسمة واحدة من نغمات البيان الحقيقي المطربة اذا لم تكن في يديك الاوتار ، ومن أين تأتي بالاوتار اذا لم تكن نفسك قد صيغت بشكل قيثارة . . كيف تضرم النار في كبدي اذا لم تكن في كبدك النار ، وهذه النار التي تشتعل في أعماق نفس الاديب هي التي تندلع ألسنتها في السطور التي يكتبها فكل سطر منها لسان نار ، وهي التي كلما استعرت مشت بصاحبها الى تلك الابراج الشاهقة الباقية على الدهر في عالم الخلود . .

فليتحسس كل من يقتحم ساحة الادب صدره فان رأى في أعماقه لهباً فليقدم غير هياب وان رأى فيها رماداً فليتحوّل عن طريق الادب الى طريق آخر أقرب الى طبيعته ومزاجه فان أشقى الناس من مشى في غير الطريق الذي أعدته له الفطرة كما ان أكفر الكافرين هو ذاك الذي أعده الخالق ليثير ببيانه وقلمه العوالم فأطفأ ناره بيديه وخنق مواهبه غير سائل ولا راحم . . .

وكم من عبقري اديب عاش ومات دون ان تمثل عبقريته دورها العظيم لانهُ جهل نفسه

او لان الناس جهلوه او تجاهلوه : وانهُ لمشهد يتصدَّع لهُ الفؤاد مشهد العبقرية مصلوبة بين الجهل والكفران يختال على قبرها الادباء الزعانف الزاقون الذين بذتهم العبقرية !

ان كتاب الادب كتاب طويل النَّفَس مذهب الصفحات لا يمكنني أن أخوض ميدانه في مقال واحد ولكنني اقول لكم حذار من التقليد فهو الداء القتال الذي تموت معهُ الذاتية وتذوب فيهِ قوة الخيال .. حذار من التقليد فهو لون من ألوان العبودية بل هو السم في كأس الأدب فليكن لكل منكم لواؤه وحربه وصرخاته ووثباته ولا يستبدكم القديم فهو وان يكن عظيماً في قدرتنا ان نجعل قرننا هذا أعظم منهُ، واذا كان « سقراط » قد نطق بآياته في ذلك العهد الاثيني فكم في أفواه فلاسفة اليوم من آيات يزيّنون بها سقراط، واذا كان « هيجو » من الخالدين فهو لم يحتكر الخلود وما هو الا أحد المدعوين الى المائدة المقدسة التي جلس اليها كثيرون ولا تزال هناك مقاعد متعددة فارغة وكل عظيم يأتي بدوره

أقول لكم لا تضعوا كل ثقتكم واعجابكم في القديم ولا تصرفوا كل جهودكم في تقليده فالدماغ البشري يطَّرد نموه والفكرة الانسانية لم تلق سلاحها بعد وعالم الخيال فسيح الارجاء مترامي الاطراف والأدب لم يفلس ليحصر همه في التنقيب عن دفائنه العتيقة .. كل شاعر من الشعراء الذين قاموا منذ الخليقة الى اليوم وصف الشمس في شروقها وغروبها ومع ذلك فشاعر اليوم يستطيع ان يقف امام الشروق والغروب ويأتيهما بأوصاف وألوان لم تخطر على بال الاقدمين.. لقد تغيَّر وجه العالم فجاء هذا التغيير بطائفة جديدة من الصور والافكار فلا تكونوا عبيد الادب الذي انقضى وطوي كتابه بل كونوا للجديد ، كونوا لنفوسكم ، ولدوا فكل مولد انسان صغير ، ألبسوا الحياة والطبيعة أثواباً من قلوبكم فيقول واحدكم وقد شاد بناءه بيديه في ساحة الادب : هذا البناء هو لي . . .

وأحب في الادب الطموح في صدر صاحبه ، أحب الأديب الغازي فليكن أدبكم أدباً طامحاً وثاباً لا يترك بحراً لا يخوضه ولا صحراء لا يجتازها ، واذا شئتم مثالاً تقتفون خطاه لتوليد هذا الطموح في صدوركم او لاتخاذه تحذوه في « بلزاك » . . بلزاك الكاتب الفرنسي العبقري الذي كان يمشق نابوليون الاول ويضع تمثاله النصفي على المائدة أمامه وقد كتب في أسفل هذا التمثال هذا السطر التاريخي البديع الذي يجب على كل أديب ان يردّده كل صباح ومساء وهو خير ما أختم به هذه الكلمة : —

« سأتم بالقلم ما بدأه بالسيف »

— بيروت —